وأخيرا استجبت

بقلم الأستاذ رفيق حكيم

لقد طالما أصغيت إلى الصدى المروع لوقع خطواتى فى الممر الخالى ، إنه نغم محزن ، يبعث فى نفسى وحشة أستجير بها من الوحدة ، فيزداد شجنى

يا إلهى أعنى على التغلب على هذه الوحدة الموحشة . وأدرت وجهى نحو باب ملجأ أبناء الشعب ، ورجوت الله تعالى أن أجد رضيعا هذه المرة لأبنائه ، فقد قرأت فى وجه زوجى « هانك هارت » الوسيم شدة ولعه بالخلف عندما تركت المزرعة هذا الصباح ، وقت أن هتف بى « مارجورى » وكأنما عرف تماما ما انتويته فقال : إذا لم تجدى رضيعا هذه المرة أيضا ، فلا بأس من إحضار طفل أكبر . ولكنه إذ صرح بهذا لم يقدر أبدا شدة ولعى وتعطشى لضم رضيع بين ذراعى ، كما لم يقدر تماما شعورى بالضياع عندما تكبر العجول التى فى المزرعة ، ولم تعد تحتاج إلى رعايتى لها . كم رغبت أن يكون لى رضيع حتى ولو اشتريناه من السوق السوداء ، كما فعلت أختى « ليلى » ولكن يا إلاهى ... هل نشترى رضيعا كما نشترى صغار العجول ! إنى إذا فعلت ذلك ورضيت به فإن « هانك » يتأبى

وكرهت مجرد الفكرة أنا أيضا . ولكن ليلا قد تبنت إبنا رضيعا ، وعلقت أملا كبيرا على أن يصون هذا التبنى حياتها الزوجية ، وها قد رحلت موفقة هى وزوجها « ركس » من سنة مضت إلى المدينة محل عمله ؛ ومازلت أنا وهانك بلا ولد هنا ، نعم هنا بالريف الهادئ

وقابلتنى الموظفة المشرفة بالملجأ مقابلة لطيفة ، وأخبرتنى فى ظرف أن الآنسة « شبرد » الرئيسة تنتظرنى ، فنهضت من فورى ، ولم أحاول النظر طويلا إلى صف الكراسى الذى طالما جلست عليه مع مثيلاتى ننتظر الساعات الطوال ، وكانت الكراسى خالية من الجليسات هذا الصباح ماعدا بنية صغيرة جالسة ، يبدو عليها الاستقامة والجد ، وترتدى ثوبا قطنيا جديدا كانت تواتى لمسه بأصابعها الدقيقة فى حرص

وبينما تقدمت على باب حجرة رئيسة الملجأ رجاء لقائها . كانت هذه الصغيرة أسرع من

البرق قد وقفت إلى جانب منضدة المشرفة وسمعت الطفلة تسر بالكلمات الآتية فى أذنها : هل أنا هنا لأجد أما وأبا اليوم ؟ أرجو أن يكون ذلك : ومازلت أسمع الطفلة تسأل هذا السؤال بعد أن دخلت غرفة الرئيسة وأغلقت بابها . وسألتها إذا كان لديها باللجأ رضيع أنبناه ؟ فنظرت إلى وابتسمت ابتسامة ود ، وطلبت إلى الجلوس لأنها تريد أن تتحدث إلى — ثم أخبرتنى بأنه توجد أزمة بالنسبة للرضع الذين تطلبهم الأسرات للتبنى ، كما توجد صعوبات جد خطيرة لعدم الثقة بإيجاد الوالدين الصالحين لتحمل المسؤولية ، وحدجتنى بنظرة فاحصة دقيقة ، فخفق قلبى وزاد نبضى ، ومضت قائلة : نعم نريد والدين يتبنيان أطفالا كبارا فتنقلب على نفسى ملل شامل من جديد ، ولكن عينى الرئيسة اليقظتين ، ونظراتها الثاقبة فتحتا طريقا لتفكيرى ، وبددت يأسى ، وفى يسر اختبرت نياتى ، وبلباقة فحصت منزلنا المتيق بالمزرعة عندما زارتنا ، ثم سألتنا فى تعجب لماذا يريد كل إنسان أن يتبنى رضيعا — فى حين يوجد أطفال أكبر ليس لهم أسر ولا والدون ! ثم قالت مخاطبة إلى : أريد مساعدتك ياسيدة (هنرث) لأنى أعتقد أن الأسباب التى أبديتها تجعلك جديرة بأن تتبنى طفلا . وتعلمين أننا مطالبون بما يحتاج إليه الأطفال ، ولذلك لا تطمئنى أبدا لإيداعهم بين يدى زوجين يريدان حماية زواجهما بتبنى الطفل خطأ ، أو على حساب أسباب أخرى أنانية ، ولكنى أعتقد أنك وزوجك تفكران فى الطفل ذاته وليس فى نفسيكما ، وعلينا أن نحميكما كذلك ، فسنعطيكما طفلا سليما عقلا وجسما ، وأن بعض النقائص لا تظهر فى الرضيع ، أما مع الطفل الأكبر فأنتما تميزين ما ستواجهينه . هل رأيت البنية الصغيرة التى تجلس فى الخارج ؟ فقلت إنى آسفة يا آنسة شيرد فإنى لا أحتاج إلى الطفلة الكبيرة ، وشكرتها وأسرعت إلى الخروج ، وتذكرت قول شقيقتى لى بأنه لا فائدة من الحضور إلى هذا اللجأ ، ولا أمثاله من منظمات رعاية الطفولة ، وكان أجدى الطرق لتبنى رضيع هو شراؤه . وأمسكت بأكرة الباب ودمته فانفتح بعنف ، وأحسست أنه خبط شخصا ، وقد وجدت فعلا جسما صغيرا فى ثوب أحمر وقد انكفأ على وجهه على الأرض الصلدة الملمعة ، فرفعت الطفلة ، وأوقفتها على قدميها ، واستفسرت عن سلامتها راجية ألا تكون قد أصيبت بأذى ، ولكنى لحظت أن فمها قد تورم واحتقن الدم حوله من السقطة على الأرض ، وبدا كلامها يثقل

ولكنها قالت وهي تحس ثيابها في اهتمام وقلق : « هل أتلف ثوبي ؟ إن على أن يكون منظري حسنا إذا كان لا بد أن أجد أما و — و » ثم توقفت عن الكلام متلعثمة وأجهشت بالبكاء ، وانتابها رعب عمت عنه عيناها عندما لمست شفتيها التورمتين بأناملها الدقيقة ، ثم ولولت ... فمي ؟ ماذا حدث لفمي ؟ ياويلتاه لن يقبل على الآن أحدا

ولم أكن مفكرة حينئذ ، وإنما كنت شاعرة بخيبة أمل الطفلة وكنت جاثية بجوارها أواسيها ، ولم أتمالك أن قلت لها: هل تحبين أن تأتي معي لمنزلنا ؟ فانتشر على وجهها الدقيق شيء من التعجب كما لو كان شعاعا مضيئا خارجا من قرارة نفسها فأضاءه وقالت الطفلة : أتقصدين بهذا أنك ستكونين أمي ؟ فقلت يا إلهي ماذا أقول لها الآن وما قصدت إلا أن أسري عنها بزيارة للمزرعة فقط ؟ ولكني قبل أن أجيبها بشيء .. سمعت صوت الآنسة شبرد خلفي ، قالت : كلا يا « جيني » وجذبت الطفلة إليها ، وضمدت ما أصابها من رضوض في رفق ، نعم كلا ياعزيزتي فإن السيدة (هارت) لا تعني أنها ستتبناك ، ثم التفتت إلى الشرفة وأمرتها بأن تأخذ الطفلة إلى الطابق الأسفل ، وأن تضع كيسا من الثلج على شفتيها التورمتين ، وشهدت الإشعاع ينطفئ ويتلاشى من عيني الطفلة ، ومشت كالدمية التي لا حراك فيها مع الشرفة ، ومرة من الأبواب المتحركة ، ثم اتجهت إلى الآنسة « شبرد » وقالت : إنها يتيمة لا يعرف أبواها ، لقد كان قصدك حسنا ، ولكن كان من القسوة أن تمني الطفلة ثم تخيبي أملها ، وشعرت السيدة « هارت » بما وقعت فيه من خطأ لما غمت عنه عينا « جيني » ، غير أنها خرجت من محاسبة نفسها شبه منتصرة موضحة أنها أنما تمنى طفلا لغرض حفظ الذكر ، وقد عاهدت نفسها وزوجها على أن يصبرا لحين يوفقا للطفل المناسب ، ولا ضرورة لملأة الطفلة . على أن هذا لا يمنع من جعلها تشعر بأن أناسا يريدها ، ويجب أن يعنى بأمرها

وأخبرتني الآنسة « شبرد » عن الطفلة بأنها قد عاشت في ملجأ اليتيمات مدة طويلة ، وتحتاج إلى تعود حياة المنزل ، ويجب أن تتعلم كيف تعيش في أسرة تشعر بأنها عضو فيها ، وفرد من صلبها ، حتى لا يصعب عليها ذلك إذا ما سلمناها لمن يتبناها ، ثم ترددت ثانية ولكنها قالت : لدى زوجان يريدان تبني طفلة كبيرة بعد عودتهما من المصيف ، فإذا رغبت يا سيدتي أن تضيفي جيني في المزرعة حتى يعودا تكونين أسديت

ممرونا كبيرا لها . على أن تذكرها دائما بأنها معك فى أشهر الصيف فقط ، فلم تمانع السيدة « هارت » وصحبتها معها فى سيارة المزرعة ، ولكن كان يشغل بالها ما قد ينشأ لدى زوجها من ولع بالطفلة ، وكيف يمكنها أن تنبيه عن ذلك ! وصممت بينها وبين نفسها على أن تتبنى رضيعا قبل أن تقدم على تبنى طفلة كبيرة ، وأنها ستسلك لذلك أى طريق

وكان اليوم عاصف الصباح بريح عاتية ، عندما أرسلت السيارة من الطريق الخلفى الموحش نحو المزرعة ، وقد تذكرت ذلك الصباح منذ ثلاث سنوات مضت ، وكنت عائدة من لندن الطبيب لأخبر زوجى عن تقريره الذى يشير إلى عقمى . نعم لم أنس شعور الألم المحض لحرمانى عاطفة الأمومة المعطية ، ولن أنسى أبدا ذراعيه عندما احتوياتنى ، فكأنما أدخلنى فى سويداء قلبه ، وغمرنى بعطفه ومواساته الصادقة ، بل لقد سرى عنى وهون الأمر بقوله : « ستتبنى رضيعا »

وصبرنا عامين كاملين لعلنا نحصل على الرضيع المناسب ، ولما لم نوفق أشار بأن نتبنى طفلا أكبر ، وحدث أن كنا فى المزرعة نتفرج على عجل حديث الولادة ، وبفعل الغريزة وجدتنى أمر بيدى على وبره الناعم وأقول لزوجى ألا نحب كل شئ صغير ؟ فقال فى بطء : إنى أفضل الصغير ، ولكنى لا أكره من زال بعض صغرهم ، وأحسست من هذا أنه كان يستدرجنى لأمر ما ، وثقل على الاصغاء

وقلت معترضة : كلا ثم كلا إن وقت الرضاعة سيكون متاعا لكلينا إذا ما وقفنا لرضيع قبل أن يبلغ بنا العمر مبلغا . لنتذكر لذة ذلك الطور وآثاره العظيمة «ياهانك» وماذا يضطرنا لأن نتعب أنفسنا فى تربية طفل كبير قد كون عادات خاصة ، ونشأ مع ناس فى بيئة تختلف عنا وعن وسطنا ؟ وأغضيت عما كان فى صوت «هانك» من نغمة توسل ، ولكنه قال : إن الرضيع لا يبقى رضيعا لمدة طويلة ، وإنما الزمن العاوير الذى يستغرقه اقتلاع ما اعتاده الطفل من عادات هو المهم ، وإن جعل الطفل يشعر بأنه محبوب وفى أمان ، ومعاونته على النمو الصحيح ، وتحرير نفسه العليمة ، ثم مساعدته على الاستقلال والتحرر منا ، فهذا ما كان ينبغى أن يكون واجب الوالدين الأول . هذا وإن الطفل فى مراحله الأولى يحتاج إلى الحب والعطف : أما الأطفال الأكبر فهم الذين يحسون كأنهم نبذوا من المجتمع ، وحرموا الاجتماع بقرنائهم ويشعرون بأنه لا سند لهم . قال

هذا « هانك » فى سخط وتحد ، ثم أردف قائلا :

لنعمل على أن يكون الطفل رشيدا إلى حد ما ، بحيث يعرف ما سيكون مصيره قبل أن يغيب له أبا ربما يكون وغدا لا تفوز الأسرة منه بخير كثير ولا قليل ، ولكنى قلت لنفسى : لعله لم يكن جادا فى تبنى طفل أكبر ، ولكنه قد يكون عول على تبنى واحد الآن ، وقد يفرح عندما يعرف فى المستقبل أننى صممت على تبنى رضيع ذكر ، ليكون ابنا ينمو هنا فى المزرعة ، ويحب الأرض والماشية ، ويكون رفيقا صديقا لهانك ، ولنفخر به عندما تعرض مواشينا فى المعرض ، وليرثنا فيما بعد . وركبت سيارة المزرعة على الفور ، وأخذت معى بعض النقود لشراء الزبد والبيض ، كما أخذت الرسالة التى كتبتها لشقيقتى ليلا لتساعدنى على إيجاد رضيع ، وسوف لا يعرف هانك شيئا عن ذلك إلا بعد أن يتم كل شىء .

وحين كنت أتجه إلى الشارع الذى خلف مزرعتنا لأصل إلى الطريق العام المحاذى للمزرعة نظرت إلى حيثى وكانت تجلس فى سكون تام إلى جانبى ، وكانت أصابعها الدقيقة تمس ثوبها الجديد فى فترات متقاربة وبحالة عصبية ، فابتسمت لها وقلت : لقد وصلنا إلى منزلنا مجتازين الشارع الجميل العامر بالأشجار الباسقة ، فوقفت السيارة ، وظهر فى عينيها شىء من التعجب ، ثانية وقالت : إن هذا البيت يشبه المنزل الذى قرأت عنه فى بعض القصص ! وقابلنا هانك قرب المزبلة وابتدرنا فقال : حسن يا مارجيرى لقد وفقت . فقلت له مقاطعة : هذه جينى حضرت لزيارتنا . وقالت الطفلة : سأبقى معكما الصيف كله ، ونظرت إلى قلنسوة هانك الرمادية ثم قالت :

إن شعرك يقف كما يقف شعر أحيانا .

فقال : إن هذا التشابه يجعلنا من مشرب متشابه بلا ريب ، ثم قال مستفسرا : بربك أخبرينا ما الذى جعلك تظنين بأنا سنتركك تذهبين عندما ينتهى الصيف ؟ وكان فى صوته نوع من الشدة ، وابتعدت جينى عنه خطوتين فى قلق ، كما شعرت مارجيرى بغضب وعدم صبر فى نفسها جعلها تحنق على رئيسة الملجأ التى حملتها مسئولية جينى ولكنها على أية حال عدلت من روع الطفلة ، وطلبت من هانك أن يفرجها على صغار المجول ويلهيها حتى تطهو دجاجة للغداء ، فسحب الطفلة كما أمرت زوجته بعد أن حدجها بنظرة ذات معنى ، ورفع الطفلة إلى كتفيه فسرها ، وخرجا للمرعى . فلما تناول طعام الغداء ظهرت على وجه زوجته تلك النظرة .. نظرة الانتهاء ، فطلب إلى الطفلة أن تذهب

لتكتشف المزرعة ، ثم قال لزوجته : لم يكن من العدل نحو هذه الطفلة أن تحضر هنا ، فبدأت مارجيرى توضح لماذا أحضرتها ، وأكدت أنها لا تستحسن فكرة تربيتها اللجأ ، فإنها إذ تعتاد على المعيشة معنا ، سيكون من العسير أن تتوقع لتعيش مع غرباء ، ولكنها أرادت أن تمرنها على الوجود فى أسرة بحالة طبيعية قبل أن تقيني

فقال هانك وكأنما لم يستمع لما قلت : إن الطفلة تألفنا بسرعة ؛ وقد لفت نظرى هذا فى اللحظة التى رأيتها فيها لأول مرة ، كما حدث لى تماما عندما رأيتك لأول مرة ، بل أكثر من هذا أراها تشبهنا ، لهذا يحسن أن نخبر الآنسة شيرد بأننا نريد أن نتبناها . فارتمع على مارجيرى ولم تدر ماذا تقول ، ولكنها صممت على عدم مفاتحة الآنسة شيرد فى الأمر . وعلى حين فجأة التمعت نظرات هانك فى عينى مارجيرى ، وقال : إذا كنت حقا تحبيننى فلا تعرقلى تبنينا هذه الطفلة . وتمتمت مارجيرى ... إذا كنت أحبه ! عجبا لقد جعله شدة ولهه بأن يكون له طفل غير متزن التفكير ، وأكدت فى نفسها قائلة : لا شك أنه سيصلح ، وسيسى جيبى عندما يكون لنا رضيع أجمل يحبه ويحبنى أكثر ، وأسرعت بكتابة رسالة أخرى لأختى ليلى لتعجل بمساعدتى على شراء رضيع كما فعلت . وجاوبتنى برجوع البريد ، فى بضعة سطور أوضحت فيها أنها ستحضر لرؤيتنا أقرب مما نقدر . وأنها ستساعدنا على الحصول على رضيع . ولم تذكر شيئا أكثر من هذا ، مما جعلنى أرتاب فى أمرها لما قرأته من بين السطور غير المنتظمة ، وزاد قلقى عليها أنها لم تذكر شيئا عن زوجها ركس — يا لله ! هل يمكن أن يكون وجود الرضيع معهما قد وسع الهوة بينهما بدلا من تضييقها ؟ حقا لقد أصابنى قنوط وحسرة . ومزقت الرسالة حتى لا يراها هانك . . يا إلهى لقد أصاب شقيقتى ما أصابنى ، وكنت مشفقة عليها منذ أحضرت جيبى إلى منزلنا ، فقد انصرف عنى زوجى كلية ، وأكتفى بصحبتها ، وأهملنى إهمالا مروعا شعرت معه بالوحدة المريرة . وآلمنى افتقاد عطفه كأنما تحول قلبه وبعد عنى مسافات طويلة ، وشعرت بالوحدة أكثر وأكثر فى الأسابيع التى أتت بعد ذلك ، فدرست الموقف ، وأدركت أن هذا التحول كله يرجع إلى وجود الطفلة جيبى بيننا ، فقد التصقت به وتعلقت بصحبته بحيث أخرجت أنا جملة من الحساب ، بل لقد أغرمت به وتبعته فى كل خطواته طوال اليوم ، ولكنها معى كانت لا تزال جيبى ،

على أنها أحبت الثياب الجديدة التي صنعتها لها ، والتي لا ترتديها إلا عندما تذهب إلى الكنيسة ، وتكتفي بالنظر إليها كل ليلة وتطمئن عليها قبل أن تلزم فراشها ، وتنظر إلي في الوقت نفسه ، كأنما تأمل في تضرع أن أزيد من حبي لها ، حتى تبقى معي .

وحدث ذات ليلة وأنا أودعها فراشها أن تعلقت برقبتي قائلة : إني أعجب كيف كان منظر أمي ! قالت هذا في نبرات متهدجة منخفضة ، فصعد الدم من قلبي وكاد يخنقني من شدة التأثر ، وأمسكت بيدي ووضعتها على خدها وقالت : لا شك في أنها كانت تشبهك ، ففاض الدمع من عيني وأنا أقبلها وأحييها تحية المساء لتنام ، وأسرعت إلى الخروج من الحجرة ، ووجدت زوجي في الردهة ، وأعتقد أنه سمع كل شيء ، ولكنه لم يذكر لي شيئا عن ذلك حتى نزلنا إلى الطابق الأرضي حيث قال : إنه ليؤلمني كثيرا الطريقة التي تحاول بها جيني أن ترضينا . إنها تريد أن تكون منا ، وحقا سيكون من العسير على فراقها . وساد صمت عميق بيننا ونحن في طريقنا لنجلس في الشرفة . ولقد كانت مفاجأة غريبة أن نرى نور عربة تشق الطريق بين أشجار السرو الباسقة ، وأدهشني أن رأيت شقيقتي ليلي تنزل من العربة حاملة الرضيع بين ذراعيها

عجبا لماذا لم تخبرنا بمجيئها حتى كنا نستقبلها على المحطة ؟ ولحظت على وجه هانك السؤال نفسه . وهو يحمل حقائبها إلى الطابق العلوي .

إنه كان يحب ليلي ويحترمها على الدوام ، وتركن نظرته إليها في هذا الموقف كانت أشد تحفظا .

وسلمت على قائلة : أرجو المعذرة من إزعاجك بهذا الشكل على غير موعد . وفي الحق أنني لم أفكر في شيء سوى سرعة مجيئي إليك .

وظهر عليها شيء من الضعف والتحول ، وبعض العجز والهزيمة ، كما ظهر عليها الوهن من حمل الرضيع المستغرق في النوم

فأسرعت إليها وحملته عنها ، وقلت : لا ينبغي أن تعتذري فأنت حرة تحضرين إلى متى شئت في أي وقت . وشعرت بأن الحمى تلتهب الرضيع وتشل حركته ، فضممته بشغف ، ففتح عينيه ، ونظر إلى تائها ، ثم أغمضهما في ثقل ، ولكنه بقي معلقا بين ذراعي . كانت تنظر إلى « ليلي » في هذه الأثناء ؛ وعلى وجهها مسحة ألم ظاهر ، وسألتني في صوت حنون : أتحبينه ؟ قلت : نعم ، إني أحبه لدرجة أني أود لو أنه ابنه . قلت هذا ونظرت إليها في صمت ، فقالت في صوت عميق متهدج : هذا هو ما دعاني للحضور إليك لأعطيك ابني ، فأنى وركس ستغفر وبعض شركة الزواج بيننا ، وكان

يحسن بنا ألا تنهى ابنا ، فلم نكن نصلح أن نكون أبوين ، وقد كره زوجى أن يربطه أى قيد ، حتى لقد ضايقه الوقت الذى كنت أصرفه مع الولد مهما كان قصيرا . وعلى أية حال لقد قضى الأمر ، وأنا أفكر فى الطفل وحده الآن ، فقد حرمته من حق الوجود فى الأسرة التى يتحد فيها الوالدان على حب الأبناء بإيثار ، فقد أحب أحدهما الآخر أول الأمر هذا الحب فقالت مارجورى : ولكنك تحبين الولد فلماذا لا تحتفظين به ؟ ولا سيما أن وكس سينفق عليكما ، أليس كذلك ؟ فقالت ليلى بتأثر : لا أعتقد أننى أستطيع الاعتماد عليه ، لشدة ولعه بلعب القمار فضلا عن أن هناك امرأة تضايقنى كلما تخلصت منها ، وإلى جانب هذا .. فإن كل طفل يحتاج إلى أب فلا ترتاعى ، واطمئنى من جهتى فلن أطالبك به بعد الآن . ويمكنك أن تتبنيه رسميا وهو لحسن الحظ صغير ، ولن يذكر أنى تبنيته تلك الفترة القصيرة فشعرت حين صرحت بهذا أن الحظ قد هبط علينا من السماء ، ولم أصدق أن هذا الرضيع الذى بين يدى حقيقة موجود معى ، ولا أنه سيكون ابننا حقا ! ونظرت إليه وسالت دموعى شكرا لله ثم كانت عينا جيني على حين فجأة تنظران إلى فى حيرة ويأس ، وتذكرت قولها : لعمرى كيف كان شكل أبى ؟ ولا إخالها إلا تشبهك .

لقد شعرت بوهن شديد انتابنى فى صباح اليوم التالى ونحن نتناول طعام الإفطار عندما شاهدت جيني تلتهم كمية كبيرة من البيض المقلى والبسكوت الساخن ، ونظرت إلى فى جد قائلة : إنك طاهية ماهرة ، ولم أستطع مواجهة نظرات زوجى ، وقصرت مشاهداتى على قفزات الطفلة وحركاتها بعد الإفطار وهى بجانب هانك بقرب حظيرة الماشية وهو مشغول بسوس العجول استعدادا ليوم المعرض ، وكان صوتها الذى ينم عن طفولتها يملأ صداه هواء الصباح الصافى قائلة : ستفوز (بتشا) العجلة اللطيفة بالجائزة ، فشعرت بألم ممض فى أعماق عندما عدت إلى داخل المنزل وكانت شقيقتى ليلى والرضيع وأنا لا نزال بالطابق الأعلى ، واشتد انزعاجى عندما سمعت عربة الآنسة شبرد رئيسة الملجأ تقف أمام الباب . وعندما ذهبت لاستقبالها وجدت زوجين فى منتصف العمر قد حضرا معها ، امرأة نحيفه ضئيلة الجسم شعرها ذهبى فاتح ، ولها أنف دقيق ، ورجل نحيل متحفظ متردد ، وقف ساكنا ينتظر أن تبدأ زوجته الحركة الأولى . وأدت الآنسة شبرد مهمة التعريف : هذه السيدة «هارت» وهذان السيد باركر وزوجته ، اللذان سبق أن حدثتك عنهما . لقد حضرا لرؤية جيني

حاشفقت على الطفلة المسكينة ، ولكنى شعرت أنه ليس من واجبى أن أختار أبويها فإن الآنسة شيرد أعرف منى لهذه الأمور وأشد حرصا ، على أنه انتابنى رجفة سرت فى جسمى على الرغم من وجود حرارة الشمس التى كنا نمشى تحت أشعتها نحو الحظيرة ، حيث كانت تقف جينى إلى جانب بابها المفتوح ، تلعب وتمرح بحرية وانطلاق فى المزرعة ، وتداعب العجول برش الماء عليها بالفرشة من أناء كبير ، ولما وصلنا إلى الحظيرة قالت السيدة باركر : ما كنت أعلم أن لك ابنة ! وما رأيت قبل الآن طفلة شابهت أباها مثل ابنتك هذه . فضحكت فى بساطة ولم أعلق بشىء ، وإنما عجبت لتطفلها ؛ ووثبت جينى فجأة كما لو باغتتها إحدى الزواحف المضرة ، وأخذت تنظر إلى آل باركر بانفعال وروع طارئ على وجهها ، لعل السكينة قدرت ما هنالك ! وأوضحت الآنسة شيرد أن آل باركر حضرا ليريا جينى ونظرت السيدة باركر إلى زوجها نظرة ريب قائلة :

لست أدرى ، وحسبى أن ينشأ مع أى طفلة كبيرة عادات رديئة تظهر فيما بعد ، ورعا كانت هذه الطفلة من ذلك الطراز ، ولكنها ضغطت على كلماتها بعد أن فطنت إلى وجودى بجوارها ، وعادت فأوضحت استغناءها عن فكرة التبنى ، فنظرت إلى جسم الطفلة القوى الدقيق ، وتذكرت قول زوجى مرة ثانية « أن فراق «جينى» سيكون كما لو ضحيت بلحمى ودمى . » وتأثرت أشد ما يكون التأثر من موقف السيدة باركر الذى أسابنى فى الصميم كالسهم المسموم ، وقلت : إن جينى ليست من بناتنا ، ولكنا نعاملها كابنتنا ، وأنى أعرف الآن كيف صدق قول « هانك » بأن مسئولية الأمومة ليس معناها مجرد حمل الرضيع بين الزراعين ، والشعور بعجزه واعتماده على غيره ، إن الأمومة الحقة معناها معاونة الطفل على مساعدة نفسه ، وتهيئة الجو الملائم للصغير لينمو صحيحا عقلا وجسما واجتماعيا بما يتناسب وطبيعته ، وليكن بعد ذلك حرا .

أن ابن « ليلى » فى حاجة إلينا أيضا وسيكونان ابنينا . وسألت الآنسة شيرد إذا كانت تأذن للطفلة أن تختار أبويها ؟! وراعتنى الطريقة التى حدجتنى بها ، ولكنى مع ذلك رأيت فى عينيها شيئا من الاطمئنان . وزاد عجبى من أمرها ، ولكنى اوتيت كثيرا فى أنها أحضرت آل باركر بقصد تسلم الطفلة . وأغلب الظن أنها أرادت أن توقفنى شخصيا على حقيقة شعورى بالنسبة للطفلة ، فهى سيدة مجربة . ونسيت وجود آل باركر ، وكذلك وجود الآنسة